

تفكيرنا وكيف تنظمه؟

بقلم الأستاذ محمد مظهر سعيد

أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

تمهيد

يحار الباحث في تتبع كل « الفكر » و « التفكير » واستقصاء المعاني المتعددة التي ذهبت إليها قواميس اللغة فيها ، والوصول إلى مدى إساءة استعمال العامة لها من ناحية ، واختلاف وجهات نظر العلوم الفلسفية في أمرها من ناحية أخرى ، رغم أنها مترادفاتهما من أكثر كلمات اللغة وروداً على ألسنتنا ؛ والعملية العقلية التي تمثلها هي أرقى العمليات التي تميز الإنسان من غيره من الحيوان .

فالناس عامة تطلق كلمة « التفكير » - من غير قيد أو تحديد - على كل عملية يقوم بها العقل سواء أكانت مجرد تذكر حادثة قديمة ، أم تصور شيء معروف ، أو التأمل في أمر يتمناه الإنسان ويشتهي أو يكرهه ، ويشعر نحوه شعوراً سيئاً ، من غير أدنى تفرقة بين ماهو حاضر أمامه يدركه بحواسه ، وبين ماهو غائب عنه يعرفه من صورته أو ذكره ، وهذا المعنى الواسع يتضمن كل سائجة شاردة ، وكل ذكرى تافهة ، وحلم من أحلام النهار والليظة ، وكل ما يترى في الذهن من حلقات متناثرة متنافرة غير منسجمة ولا متصلة .

هذا كله ليس بتفكير ولا تأمل ، لأنه لا يتعين عند التفكير الصحيح أن تترى الأشياء وعناصر الأشياء وحلقات سلسلة الأمور التي يفكر فيها العقل وتتعاقب وراء بعضها فحسب ، بل لابد أن ترتبط ارتباطاً محكماً بحيث تستند كل خطوة إلى سابقتها وتحدد التي تأتي بعدها فتكون حلقة متصلة في سلسلة الأفكار . أما التفكير بمعناه العلمي المحدود في علم النفس الحديث فهو « العملية العقلية التي يقوم بها العقل عند شعوره بأنه يواجه موقفاً معقداً غير مألوف لديه ، يتطلب منه أن يتصرف تصرفاً خاصاً مقيداً بالظروف والملاقات القائمة فعلاً ، أو التي يستنبطها العقل بين أجزاء هذا الموقف أو بين هذا الموقف وموقف آخر يتصل به أو بمثاله وبين العقل ذاته والموضوع الذي يفكر فيه » .

فكل موقف يقفه الإنسان ويشعر فيه بضرورة التصرف للوصول إلى غرض معين تعترضه إليه صعوبات مستعينة عليه بما يستكشفه من علاقات بين عناصر الموقف ، فهو موقف يستدعي

التفكير، ويخطئ الكثير من المدرسين في تصور أن كل عملية استنتاجية تتطلب شيئاً من التفكير، فيقول مدرس الحساب مثلاً: إنه يعطى مسائل عقلية كثيرة لتقوية التفكير، وهي قد تكون في الحقيقة تطبيقاً لقواعد أخذها التلميذ ودرسها وعرفها، ولذلك غالباً ما يتذكرها ويقول جواباً للسؤال عن كيفية حلها بغير أدنى تردد «نطرح أو نقسم يا فندى»، لأن هذا العمل مألوف لديه، فلا يحتاج لشيء من التفكير؛ فيصح إذن أن يقوم العقل بعمليات عقلية كثيرة مرتبطة بموقف معين؛ ولكنها لا تسمى تفكيراً إلا إذا توفر فيها هذان الركيزتان:

١ - إدراك العلاقات بين أجزاء الموقف وبعضها - ٢ - الشعور بضرورة التصرف.

فالأصل في التفكير وجود مشكلة، تستوقف الذهن قليلاً، لها حل واحد أو جملة حلول، ويعترض سبيل الوصول إلى هذه الحلول ارتباك أو شك يدفع العقل إلى محاولة إيجاد مخرج منها، أو الوصول إلى نظرية أو رأى أو مشروع تحل به، وهذه المشكلة تبدو مشكلة كلية في أول الأمر، وترى تشعباتها عند ما يأخذ الإنسان في أسباب حلها، وهي كما يقول «ديوى» الفيلسوف الأمريكي «حالة حيرة وشك وتردد تتطلب بحثاً أو عملاً يجري لاستكشاف الحقائق التي تساعد على الوصول إلى الحل».

ولكن العناصر الموجودة بالفعل، لا توحى بالحل لأول وهلة، وإنما هي قد تساعد على إخراجها من بطون التجارب الماضية والمعلومات السابقة، أو استنباطها من جديد بعد قلب الأمر على كافة وجوهه، والبحث عن المعلومات الضرورية لكشف الغامض أو إثباته، إن كان قضية، أو بيان بطلانه وسخافته إن كان زعماً، أما التريث في الحكم عند الشعور بنقص المعلومات؛ فالشك والتحقيق المنظم هما أساس التفكير الصحيح.

ونستطيع أن نقول إجمالاً إن عناصر التفكير هي:

١ - الشعور بضرورة التصرف في المشكلة القائمة - ٢ - تقدير القيم النسبية للموقف وأجزائه وإدراك ما بينهما من علاقات، وتعميل الموقف لاستخلاص نتيجة معينة.

٣ - الحكم على الموقف أو الموضوع بالصحة أو البطلان.

وينتقل المفكر من التساؤل عن إمكان حل المشكلة إلى اختبار نوع التصرف الذي يراه موصلاً للحل المطلوب إلى التصرف بالفعل، فيقدر ما يدرك العقل من قيمة بقدر ما يكون نزوعه للحل.

فمثل من يعالج مشكلة عقلية مثل الغريب يسلك سبيلاً لا يعرفها، ثم يجد نفسه وحيداً في مفترق الطرق، يقف ويتردد... في أى طريق يعيش وأى النواحي يأخذ؟ فيضرب على غير هدى ويسير يميناً أو يسرة، أو يستمر في طريقه، أو يسأل عن الطريق، أو يعتلى شجرة عندما يجد دليلاً يهديه إلى ما يريد.

والإنسان في كل يوم من أيام حياته، بل في كل سؤال يلقي عليه، وفي كل موضوع يقرؤه، وفي كل حادثة يشاهدها، وبالجملة في كل ما يتضمن شيئاً خفياً يراد كشفه، ينتقل من إدراك الموقف وتحديدته إلى تلمس الحل وفرض الفروض واستخدام معلوماته السابقة إلى تعليل الفروض لبيان صحتها أو بطلانها، وأخيراً إلى الحكم أو نتيجة الحل .

خذ مثلاً هذه المشكلة: حجرة لها باب واحد ونافذة واحدة، فعند الظهر يدخل شمع الشمس من نافذة الحائط الذي يكون إلى يسار الداخل، ويقع على الحائط الأيمن. ففي أي اتجاه تنظر لو وقفت وظهر لك للحائط المقابل للباب ؟

خطوات العقل في حل المشكلة

عند معالجة المسألة الماضية أو ما يماثلها من المشاكل العقلية يتبع العقل خطوات وينتقل من أقسام سنحلها ونحددها فيما بعد.

وفي المثال السابق تشعر أنك أمام مشكلة غامضة، تتمثل في الجواب المطلوب للباب، فتبدأ بتحديد الموقف وتحليله إلى كل عناصره، وهي في هذه الحالة شكل الحجرة وتركيبها وتحديد الاتجاهات المعروفة من رأس السؤال، ثم تصور كل هذا أو ترسمه كروكياً، فتفرض أن الاتجاه يكون شمالاً مثلاً، وتعمل على التحقق من صحة الحل بناء على العلاقات القائمة بين أجزاء السؤال ومعلوماتك، أو تستنتج الحل خطوة خطوة، فأنت تعلم أن الشمس تشرق في الشرق وتكون عند الظهر في الجنوب، فالنافذة التي تدخل فيها الشمس قبل الظهر لا بد أن تكون قبلية، أي أن الحائط الذي إلى يسار الداخل قبلي، فالباب يكون حتماً في الشرق، وأنت إذا وقفت وظهر لك للحائط المقابل للباب توجه بالضرورة نحوه، إذا أنت تتجه شرقاً، ففرضك الأول غير صحيح، أما الصحيح فهو الشرق، ولذلك تراجع الحل على اعتبار أنه الصحيح حتى تنتهي إلى رأس السؤال وتكون قد حققت المسألة طرداً وعكساً. وسنقفل الآن هذه الخطوات لما لدراستها من أهمية عظمى في التربية والتعليم وتنظيم التفكير والمباحث الجنائية وحل المعضلات.

(الخطوة الأولى — الشعور بوجود مشكلة تتطلب الحل)

ويصح أن تكون المشكلة قديمة مرت على الإنسان من قبل كثيراً ولم يعن بحلها، أولم يكن الحل في مقدوره وقتئذٍ عند ما واجهها أول مرة، ويجوز أن تكون موقفاً جديداً بسيطاً في حد ذاته، ولكنه يتطلب التفكير لجرد أنه أمر جديد، ونحمل جدته العقل على التفكير فيه، وعلى كل حال كلما حدثت أزمة تفكير، يشعر العقل فيها بأن طرق التفكير العادية لا تنفع فيها، أو ليس في استطاعته أن يكيف نفسه بالطرق المألوفة لديه، فليس من الضروري إذن أن تكون المشكلة صعبة عويصة، بل أي موقف يتطلب حلاً وتصرفاً نسميه مشكلة، وإذا وجدت نفسك في

موقف جديد معين يتطلب التفكير، وفكرت في حل له، ثم عرض لك هذا الموقف مرة أخرى فحللته بنفس الحل، تكون العملية هنا عملية تذكر واستعراض، ولا تكون تفكيرية إلا إذا حللتها بحل آخر جديد.

والكثير من الأسئلة التي يلقيها المدرسون، وهم يعتقدون أنها باعثة على التفكير، إذا حللتها وجدتها تتضمن إما اختيار شيء من عدة أشياء، أو استعراض شيء قديم من غير أدنى تفكير.
(الخطوة الثانية - تحديد المشكلة وتحليلها إلى عناصرها)

ذلك لمعرفة الغرض منها، والنتيجة التي سيوصل إليها التفكير فيها، ليكون نصب عين العقل طول عملية التفكير.

فشمور العقل بالمشكلة التي تواجهه، يحمله على التفكير في معالجتها وحلها وتحديد ما هو... الخ، فيبدأ لذلك بحلل المشكلة إلى عناصرها، ويرتب هذه العناصر ترتيباً خاصاً، ويناقشها ويدرس كلا منها على حدة، ويستخلص منها ما يرى أنه يفيد في حلها ويستبقه ويحذف النقط التي يجد أنها غير ماسة بالموضوع، كأن تكون عرضية ويستبعد ما تحتفظها تحت الطلب.

فالمرء حين حل المشكلة لا يستخدم جميع عناصرها، بل يستخدم بعضها، ويرجى بعضها الآخر، وقد يعدل رأيه فيستخدم بعض العناصر التي لم يكن يفكر في استخدامها. وتحرين الهندسة حين يعرض عليك لأول مرة هو نموذج كامل للمشكلة.

وللتمثيل لذلك نقول: إنه عند الكلام في درس جغرافيا عن إنشاء خزان في نقطة ما، يستعرض العقل كل العناصر الموجودة أو التي تمت للموضوع بصفة: فعناصر هذه المشكلة هي طبيعة الأرض التي يقام عليها الخزان طبيعة الميكروبات التي في هذه المنطقة، ومقدار الماء المطلوب حجزه وتصريفه، والأرض التي تتلف من الإثشاء ومصاريف البناء والفوائد التي تعود على الأهالي الخ الخ، كل هذه عناصر للموضوع أنت تستعرضها، وتستخلص منها ما يتحصر فيه بحثك، وتحذف البعض الآخر الذي لا فائدة فيه متبعا قانون «الاقتصاد العقلي» الذي يذهب إلى «أن العقل يتوخى دائماً وفي كل عملياته الاقتصاد، فيعمل بأقل عدد ممكن من العناصر، ويتبع أقل الطرق صعوبة ومقاومة، حتى يصل إلى الحل في أقصر وقت، ومن أقرب طريق». وتحوى هذه الخطوة التبويب والتصنيف والترتيب: ومن ناحية أخرى جميع المعلومات اللازمة وعمل الإحصائيات والمقارنات ومتابعة المراجع والمصادر، والرجوع إلى كتلف الآراء والاستناد إلى شتى الحجج واستقصاء مشهور الأقوال، وبالجملة استخدام كل ما يمكن استخدامه في حل هذه المشكلة العقلية، لذلك نجد هذه الخطوة أظم ما يكون في كل بحث علمي، ونكاد تكون الأساس الذي يترتب على متانته نجاح البحوث.

(الخطوة الثالثة - افتراض الحلول الممكنة)

لما كانت العناصر الموجودة بالفعل ، لا تعطى حلاً للمسألة القائمة - وإلا لما كانت هناك مشكلة أصلاً - كان طبيعياً أن يتلصق العقل منها عنصراً غير موجود يوصله للحل ، ويقلبها على وجوهها المتمددة ، ويستخدمها للبحث عن معلومات أخرى غير موجودة تساعد على كشف الغامض نوعاً ، أو يبين سخفه وبطلانه أو رصافته أو صحته . فالعناصر الموجودة لا تعطى الحل وإنما تساعد على افتراضه ، والخطوة الأولى الحقيقية الفعالة في حل المشاكل ، هي فرض الفروض ؛ وسنفرد لها مكاناً نتكلم فيه عنها بما يتناسب وخطورتها في الأبحاث العلمية ، ويكفي أن نقول هنا إن الفرض هو الفكرة التي يرى الإنسان بادئ ذي بدء ، أنها الموصلة إلى الحل أو التي يتوقف عليها - على الأقل - نوع التصرف الذي يختاره ويراه صالحاً لحل المشكلة ؛ وعند مجرد تكوين الفرض يعمل العقل على تحقيقه بآليات صحته والتمسك به أو بطلانه ، وافتراض فروض أخرى واختبار كل منها بدوره حتى يستقر على واحد منها كما سيجيء في الخطوات التالية .

(الخطوة الرابعة - تجربة كل الاحتمالات الممكنة)

ذلك أنه إذا كان للمسألة عدة وجوه تقبل أكثر من فرض واحد ، فيجب أن تجرب هذه الفروض الواحد بعد الآخر ، وعند الوصول إلى حل صحيح ، لا يصح الاقتصار عليه ، كلاعب الشطرنج يجرب كل الردود الممكنة التي تعد بمثابة حلول للمشاكل التي وضعه فيها خصمه اللاعب الآخر ، قبل أن ينقل القطعة من موضعها ، ويكون حله نهائياً ، ويستمر يجرب حتى يصل إلى نظرية عامة ، إن تحققت كان الفرض صحيحاً ؛ ويتبع قاعدة من النوع المنطقي المعروف : إن كان كذا كان كذا ، فيناقش العقل كل عنصر على حدة ثم كل عنصرين تربطهما علاقة معاً ، ثم كل ثلاثة وهكذا إلى أن يصل إلى الحلول الممكنة سواء أكانت حلاً واحداً أم عدة حلول ، وبعبارة أخرى يكون إظهار صحة الفرض عن طريق التعليل الاستقرائي في هذه الخطوة ، والقياس يكون في الخطوة التالية .

ومن أعظم العوامل قيمة في التفكير الصحيح وكسب العادات العقلية المنظمة ، التمسك بحالة الشك والتردد هذه ، والاستمرار في البحث وتعليل الحكم والتريث فيه انتظاراً لعناصر جديدة تتم الموقف ، فتؤيد أو تهدم الفروض التي تقدمت ، لأن الشك والتحقيق هما الأساس .

(الخطوة الخامسة - تحقيق الحل أو الحلول التي انتهى إليها العقل)

وبعبارة أخرى العمل لاثبات الفروض عن طريق التجريب والتحليل والتركيب ، وعن طريق تجارب جديدة أو ملاحظات تنتهي بقبول الحل أو رفضه ، ومن ثم الاعتقاد وعدمه سلباً أو إيجاباً ، ومن ناحية أخرى ترمى هذه الخطوة إلى التأكد من صحة الحل أو الحكم الذي وصلنا إليه ، بإعادة كل التجارب عليه وحده باعتباره الحل الذي انتهت إليه كل الحلول وتطبيق

النظرية العامة التي استنبطها من الاستقراء في الخطوة السابقة ، وقياس حالات أخرى خاصة بهذه الحالة العامة ، ولذلك تسمى خطوة التحقيق .

فنستطيع الآن أن ننظر إلى عملية التفكير بخطواتها الخمس على اعتبار أنها خطوات تحليلية ، تترتب على بعضها ، ولكن ليس معنى هذا أن كل المواقف لا بد أن تشمل على هذه الأقسام الخمسة .

ففي بعض الحالات تنتهي عملية التفكير عند الخطوة الثانية ، لأنه بمجرد التحليل يرى الحل ظاهراً ، ويكون إجراء الخطوات الأخيرة كمالياً ، مثال ذلك مدرستان : الأولى أهلية والثانية أميرية ، كانت نتيجة الأولى في الامتحانات ١٠ في المائة ، والثانية ٢٥ في المائة ، ويراد معرفة السبب ، فأول ما يفعله العقل هو البحث عن العوامل التي تؤثر في سير المدرسة على الإطلاق ، وتحديد وجودها كمعهد علمي ، وهي إجمالاً وسط المدرسة : (١) بناؤها (ب) وحالة التلاميذ (ح) ثم المدرسون (م) الناظر (ن) وغير ذلك وتقدر القيمة النسبية لكل عنصر على حدة ، ونستعرض الحلول المحتملة وهي أن يكون السبب في التفوق عاملاً واحداً أو أكثر ، وتقارن العوامل المتشابهة في كل من المدرستين حتى نصل إلى الناظر ، فنجدها كلها متساوية ماعدا شخصية الناظر : فهي في الثانية أقوى منها في الأولى ، فالأرجح إذاً أن يكون سر نجاح المدرسة الثانية راجع إلى هذا العامل .

$$11 = 2 + 3 + 3 + 3 \quad \text{المدرسة الأهلية}$$

$$25 = 2 + 3 + 3 + 3 \quad \text{المدرسة الأميرية}$$

التحليل

فبستنتج العقل على الفور أن الفارق هو في كفاءة الناظر ، ويشطب الخطوات الباقية ، ويتم هذا بطريقة لا شعورية ؛ ففي مثل هذه المواقف لا يحتاج العقل إلى مقارنة وتجربة حلول ؛ أي تمتنع الخطوات الثالثة والرابعة والخامسة ، ويبدو الحل جلياً من الثانية ، فكان هذه الخطوات لا تتم في عملية عقلية إلا إذا كانت متكونة من عناصر كثيرة وفيها احتمال أكثر من حل واحد .

ومثال آخر : إنه قد تمتنع خطوات التحليل في مواقف قراءة الحروف غير المرتبة حيث لا يحتاج العقل إلى تحليل الكلمات فهي محللة جاهزة بل ينتقل إلى تجربة الحلول والتحقق .

محمد مظهر سعيد